

الاندماج القبلي بمجال المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط

بين الطموحات القبلية، وأهداف السلطة السياسية

Tribal integration in the central Maghreb at the end of the Middle Ages

Between tribal ambitions and the goals of political power

نبيل شريخي

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار - قسنطينة، ¹charikhi.nabil@ensc.dz

تاريخ الإرسال: 2025/02/15؛ تاريخ القبول: 2025/05/12؛ تاريخ النشر: 2025/06/01

المخلص باللغة العربية:

نحاول من خلال هذا البحث تتبّع العلاقة بين سلوك السلطة السياسية في بلاد المغرب الأوسط وتأثيرها على البنية القبلية بها في فترة الموحّدين وما بعد الموحّدين؛ انطلاقاً من أنّ استعمال الفاطميين للقبائل العربية سياسياً لم يكن عملاً انفرادياً به، بل تعدّى ذلك إلى الدول القائمة بعدهم ببلاد المغرب الإسلامي، عن طريق التحالف مع هذه القبائل تارة، واستعمالها في الجباية، والقيام بالإقطاع لها، أو انقلاب ذلك إلى المواجهة معها ومطاردتها والقيام بالتهجير القسري لأفرادها.

وزيادة على ما عرفه ذلك الانتقال من مواجهة بين القبائل الوافدة مع العنصر المحلي، والذي نقلته المصادر التاريخية، نحاول أن نصل إلى عرض وتفسير ذلك الاندماج الذي حدث بين القبائل العربية والبربر بسبب الإجراءات السياسية الممارسة تجاه هذه الأخيرة، على غرار ما حدث بين عرب رباح وكنامة، وانعكاساته على بنية القبيلة وتوزّعها في مجال المغرب الأوسط، ومدى محافظتها على وجودها فيه، وما نتج عنها من تأثيرات على تلك القبائل ونمط عيشها ودورها في المناطق التي تسكنها.

الكلمات المفتاحية:

القبيلة؛ الزيانيين؛ المغرب الأوسط؛ السلطة؛ الاندماج.

Abstract:

Through this research, we attempt to trace the relationship between the behavior of political authority in the countries of the central Maghreb and its impact on the tribal structure therein during the Almohad period and after the Almohad period. This is based on the fact that the Fatimids' political use of the Arab tribes was not an act carried out exclusively by them, but rather extended to the states that came after them in the countries of the Islamic Maghreb, through alliances with these tribes at times, and their use in taxation and the implementation of feudal servitude to them, or the transformation of this into confrontation with them, persecution of them, and the forced displacement of their members.

In addition to what that transition knew of confrontation between the incoming tribes and the local element, which was reported by historical sources, we try to reach a presentation and explanation of that integration that occurred between the Arab tribes and the Berbers due to the political measures practiced against the latter, similar to what happened between the Arabs of Riyah and Ketama, and its repercussions on the structure of the tribe and its distribution in the area of the Maghreb, and the extent to which it maintained its presence therein, and the resulting effects on those tribes and their way of life and their role in the areas in which they live.

Keywords:

Tribe; Zayanids; central Maghreb; Authority ; Integration.

المقدمة:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن السابع الهجري (13م) تغييرا في أوضاعها السياسية؛ فالدولة الموحدية (524-668هـ/1129-1269م) التي جمعتها تحت رايتها تعرضت لمنافسة قبائل بني حفص المصمودية، وبني مرين وبني عبد الواد الزناتيتين،

واقسمت أراضيها بعد أن كانت تقدّم الولاء لها، وأسست على أنقاضها دُولاً حكمت المنطقة في الفترة التي أعقبت سقوطهم.

إنّ التغيير السياسي الذي حدث لم يكن بمعزل عن تداخل في علاقة كلّ طرف، سواء الدولة الموحدية الأيالة للسقوط أو الدول التي قامت بعدها، بمختلف القبائل المتوزّعة على أراضيها، وهو الأمر الذي سبقتهم إليه الدول القائمة قبلهم، كالتحالف الذي نشأ بين الفاطميين و قبيلة كتامة في مرحلة تأسيس الدولة؛ فقد كانت قبيلة كتامة هي عصبية الدولة وأساس ظهورها، ومنذ أن استقرّ المهدي بقرادة بدأ يتصرّف على الاعتماد على رجال كتامة في تسيير شؤون الدولة الجديدة في مواجهة خصومها وأعدائها (لقبال، 1979، صفحة 434، 435)، ثمّ حدث انقلاب في ذلك الحلف بعد دخول قبيلة صنهاجة في تحالف مع السلطة الفاطمية، بتقديم زيري بن مناد الصنهاجي أولى خدماته للفاطميين، عندما حاول فك الحصار المضروب على مدينة المهديّة (زاوي، 2019، صفحة 16)، وبعد دخول الخليفة الفاطمي المنصور بلاد صنهاجة سنة 335هـ/946م وفاء زيري بن مناد بعساكره وأهل بيته ودخل في طاعته (دينار، 1286هـ، صفحة 72).

وتناولت العديد من الدراسات تلك التغييرات التي حدثت على القبائل في بلاد المغرب؛ فقد أكّد محمّد نجيب بوطالب في بحثه "سوسيوولوجيا القبيلة في المغرب العربي" إلى دور التحالفات، وعمليات اختلاط النسب، بالتزاوج بين المجموعات، وتغيير مواضع السكن، وتبدّل أنماط الإنتاج، إلى إحداث عمليات اندماج في النسيج الاجتماعي لتلك القبائل، ومن جانبه توصل الطيّب بياض في دراسته إلى صعوبة التمييز بين القبائل العربية والبربرية في بلاد المغرب بسبب حدوث عمليات الاندماج، وأكّد الأستاذ علاوة عمارة في إحدى دراساته عن "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"، كما قامت أبحاث أخرى بتتبّع حركة القبائل العربية في بلاد المغرب، على غرار ما فعل الأستاذ إبراهيم جدلة في دراسته حول "قبائل رياح من النيل إلى الأطلس"، وهو ما يقدّم تقاطعات مع الموضوع الذي نحن بصدد معالجته.

ونهدف من خلال هذا البحث إلى محاولة استعراض ما حدث من اندماج بين القبائل الوافدة والمحليّة ببلاد المغرب الأوسط، والذي كان أحد نتائج سلوك الدول القائمة ببلاد المغرب تجاه تلك القبائل التي استوطنت مجالات بلاد المغرب الإسلامي عموماً، ورغبة من تلك القبائل في تجسيد طموحاتها، ونحاول التعرّف عن مدى استفادة السلطة من توطيد أركانها وبسط نفوذها بمختلف القبائل؟ وكيف استفادت هذه الأخيرة من ذلك؟ وهل أثرت العلاقة بها على بنيتها وقدرتها في المحافظة على وجودها وتوزيع بطونها وأفرادها في مجالاتها؟

1- التحركات القبلية بمجال المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري (11م):

عرفت بلاد المغرب الإسلامي توافد القبائل العربية منذ القرن الأول الهجري (7م)، وأصبح أفرادها جزءاً من عناصر سكانها؛ وهذا ما نجد المؤرخ والجغرافي أحمد اليعقوبي (ت284هـ/897م) يذكره عن بعض مدن المغرب الإسلامي، على أنها أخلاط من العرب والعجم والبربر (اليعقوبي، البلدان، 2002، صفحة 180، 186)؛ منها القيروان التي "بها أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان" (اليعقوبي، البلدان، 2002، صفحة 187)، وقام الأستاذ محمد حسن بتتبع توطين الوافدين من العرب على إفريقية والمغرب وبواعثه، مؤكداً استقرار عناصر عربية في المدن الكبرى بالمغرب الأوسط لإحكام السيطرة على المجال ولغايات تجارية، فنزل التجار الأندلسيون ببونة وتاهرت ووهران، وسكنت مجموعات من البصريين والكوفيين تاهرت (حسن، الجذور التاريخية لبلاد المغرب جدلية السلطة والمجتمع والمجال، 2022، صفحة 347، 389).

وشهد القرن الخامس الهجري (11م) والفترة التي بعده الانتقال الأكبر للقبائل العربية، وكانت الهجرات الكبرى للقبائل الهلالية والزناتية مؤثرة للغاية في خلخلة البنية القبلية في شمال إفريقيا، خاصة في المغربين الأدنى والأوسط؛ بإحداثها تغييرات جذرية في بنية مجتمعاتها، عن طريق تغيير التوزيع القبلي لها، فأدى هذا الاكتساح إلى دفع القبائل إما إلى الخضوع للقبائل المكتسحة، ومن ثم الاندماج فيها، أو إلى الهجرة نحو المناطق الأكثر أمناً والاحتماء بها، خاصة في المناطق الجبلية (الكوخي، 2014، صفحة 91)، وهو ما وُصف بأنه إعادة صياغة العناصر البشرية المكونة للمجتمع المغربي عامة، والإفريقي خاصة (حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، 1999، صفحة 38).

ونقلت لنا المصادر التاريخية انتقال العرب إلى بلاد المغرب وأسبابه؛ على غرار ما فعل صاحب كتاب العبر (خلدون ع.، 2007، صفحة 13، 22)؛ وابن عذارى المراكشي (المتوفى بعد 712هـ/1312م) (المراكشي، 2009، صفحة 288، 295)، ورغم أن أعداد المهاجرين من القبائل العربية إلى المغرب في القرن الخامس الهجري (11م) غير معروف، إلا أن الثابت أنهم كانوا بأعداد كبيرة (المراكشي، 2009، صفحة 288)، فبعد أن تمكن عرب بني هلال من القضاء على مُلك بني زيري بإفريقية، والاستيلاء على مدينة القيروان عام 449هـ/1105م (المراكشي، 2009، صفحة 289، 294)، وهددوا الدولة الحمّادية (حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، 1999، صفحة 42، 43)، تطلّعوا إلى المغرب الأوسط، لكن قيام دولة المرابطين وحاميتها القويّة المستقرّة بتلمسان، جنّب المغرب الأوسط والأقصى - إلى حين - مصير إفريقية (ضيف، 1982م، صفحة 66).

عرف المغرب الأوسط و صحراؤه تركّزا مُهمًا لعرب زغبة الهلاليين - الذين هم إخوة لرياح ، من أبناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر - وبربر زناتة ، ومسوفة (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 40) ، وُقِّسَت المناطق الخصبة الممتدة من تونس إلى قسنطينة ، بين القبائل العربية من بني هلال ؛ فسكنت قبيلة رياح - التي ذكر ابن خلدون أنّها من أعز قبائل بني هلال ، وأكثرهم جمعا عند دخولهم إفريقية ، وينسبون إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر - المناطق الواقعة ما بين القيروان وقسنطينة ، والذي نتج عنه اختلاط واسع مع قبائل كتامة البربرية (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 31 ، 37) ، أمّا بنو الأثنج - الذين كانوا من أكثر قبائل بني هلال عددا عندما زحفوا إلى المغرب - فقطنوا الأجزاء الشرقية من جبل الأوراس (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 22 ، 29) ، واستقرت قبائل بني قرة في الأجزاء الشرقية من جبل الأوراس المجاور للصحراء ، بعدما نقل الموحدون "...الأعصم ومقدما وقرّة وتوابع لهم من جشم وأنزلوا جميعهم بالمغرب...[الأقصى]" (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 22).

2- تأثير السلطة السياسية على الخريطة القبلية بعد القرن الخامس الهجري (11م):

نجح الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي (524-558هـ / 1129-1162م) في كسر شوكة القبائل العربية ، والانتصار عليهم في معركة سطيف عام 547هـ / 1152م (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 236) ، إلا أنّه ورغم تمكّنه من طرد تلك القبائل من بلاد المغرب الإسلامي وإعادتها إلى مصر ، فقد أبدى تسامحا كبيرا معهم لعدّة أسباب ؛ كان منها الرغبة في استعمالهم بحروب الأندلس (حسن ، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، 1999 ، صفحة 41 ، 42) ، وتعمّد إسكانهم وسط القبائل المصمودية ؛ في محاولة منه لكسر التحالفات القبلية التي كانت تنشأ في هذه المناطق ، عن طريق إدخال عنصر أجنبي غريب عليها ، هو العنصر العربي (الكوخي ، 2014 ، صفحة 86 ، 89) ، فتواصلت بذلك الهجرة الراحية مع الخلفاء الموحّدين الثلاثة الأوائل ، وامتدت إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري (12م) (جدلة ، 2004 ، صفحة 106).

وكانت من بين أهم مظاهر هذا الإجراء في المغرب الأوسط ، هو حلّ قبائل رياح محلّ عرب العاصم ومقدّم وقرّة - الذين نقلهم الموحّدون إلى تامسنا بسبب تأييدهم لبني غانية (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 22) - فاستولوا على قسنطينة وآلت زعامتهم إلى الزواودة ، و "...امتاز الزواودة بملك ضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة..." (خلدون ع. ، 2007 ، صفحة 33) ، ممّا اضطر بقايا الأثنج لضعفهم إلى الاستقرار بقرى الزاب (القسنطيني ، 1968 ، صفحة 129 ، 130) ، وازدادت قوّة رياح في بداية الدولة الحفصية ، فعمدت هذه الأخيرة إلى اصطناع قبائل

كرفة من بطون الأثيج، ليكوثوا حربا على الزواودة ورياح، وأقطعتهم بجاية الجانب الشرقي من جبل الأوراس - حيث كانوا يقيمون - وجزءا كبيرا من بلاد الزاب الشرقية (خلدون ع.، 2007، صفحة 22، 23).

ومن جهة أخرى استقرت بطون عرب زغبة؛ بنو يزيد (خلدون ع.، 2007، صفحة 41، 42)، وبنو عامر (خلدون ع.، 2007، صفحة 51، 56) ببلاد حمزة، وبنو حسن، من أوطان بجاية، وحالفوا بني عبد الواد، وأسهموا في قيام دولتهم (خلدون ع.، 2007، صفحة 41، 51)، إلا أن علاقتهم بها تراوحت بين فترات للحلف وأخرى للحرب؛ وهو ما انعكسه وضعية بني يزيد من بطون زغبة المستقرون ببلاد حمزة، أثناء الصراع بين أبي زيان محمد بن عثمان (703-707هـ/1303-1307م) وأبي حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م)، أو وضعية بني عامر مع السلطان الزياني أبي حمو (ضيف، 1982م، صفحة 155، 162)، وفي حالة هذين البطينين تتجسد لنا تأثير الأوضاع السياسية على مواطن القبيلة - والتي ذكرناها سابقا - فتراوحت مجالاتها بسبب ذلك بين التلال والصحراء.

ونجد الثعالبة - من ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير - (خلدون ع.، 2007، صفحة 64، 65)، وهم ثلاث بطون؛ ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان من عرب المعقل، الذين ذكر ابن خلدون أن قبيلهم لهذا العهد من أوفر قبائل العرب، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورون لبني عامر من زغبة، في مواطنهم بقبلة تلمسان، وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب (خلدون ع.، 2007، صفحة 58)، قد استقروا بعد ذلك بجبل تيطري (أشير) أولا، وبعد سيطرة بربر بني توجين على "وانشريس" في عهد دولة بني زيري، وبالتحديد عندما تقام الخلاف بين باديس بن المنصور (373-386هـ/984-996م)، وعمه حماد بن بلكين (398-419هـ/1007-1029م)، فناصر سكان الونشريس باديس، ما ساهم في إحرازه انتصارا على عمه، فأقطع لهم منطقة جبل الونشريس (بوعبدلي، 1980، صفحة 91، 94)، فقاموا بطرد الثعالبة إلى سهول متيجة، وشغل عرب حصين من بطون زغبة مواطنهم بتيطري، بعدما كانت مواطنهم بجوار بني يزيد إلى المغرب؛ فقد انتصر بنو عبد الواد على بني توجين، وساموا حصينا، وألزمهم المغارم (خلدون ع.، 2007، صفحة 43)، كما سكن بربر مليكش - والذين هم من بطون زواوة، من قبائل كتامة، ومواطنهم "...بنواحي بجاية، ما بين مواطن كتامة وصنهاجة، أوطنوا عنها جبالا شاهقة متوعدة..." - سهول متيجة (خلدون ع.، 2007، صفحة 128)، إلى أن سيطر بنو مرين على المغرب الأوسط، فقصوا عليهم، وقد استولى الثعالبة على سهول متيجة مجددا، وكانوا في عداوة مستمر مع بني عبد الواد، انتهى بقيام

السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) بالقبض على أميرهم سالم بن إبراهيم، وقتله بتلمسان سنة 779هـ/1378م، فضعف أمرهم، واندمجوا بعد ذلك بمن جاورهم من العرب والبربر (خلدون ع..، 2007، صفحة 64، 65).

وكان ذوي عبيد الله- والذين هم من بطون زغبة من عرب المعقل- مجاورون لبني عامر بن زغبة، ودارت بينهم حروب وفتن متواصلة (خلدون ع..، 2007، صفحة 61، 63)، نجد مواطنهم ما بين تلمسان إلى وجدة، ومصب وادي ملوية، كانوا ثائرين على دولة بني عبد الواد بصفة تكاد تكون مستمرة، فقاتلوهم في البداية، وتذكر المصادر أنّ بني عبد الواد غزوهم في فترة يفمراسن اثنان وسبعون مرة، وهو ما أورده يحيى بن خلدون (ت788هـ/1386م) بقوله "...وتخلّل هذه السنين عدّة غزوات ضد العرب بصحرائهم، بلغت اثنان وسبعون" (خلدون ي..، 1910، صفحة 115)، قبل أن تقوم الدولة بإقطاعهم جباية البربر المستقرّين بجوارهم؛ مثل بني سنوس، إلى جانب ما فرضوه عليهم من إتاوات، حتى أنهم فرضوا ضريبة على الطريق فيما بين تلمسان وبلد هنين على الساحل، أطلقوا عليه ضريبة "الإجازة" (خلدون ع..، 2007، صفحة 61).

وسكنت حصين بن زغبة، غرب موطن عرب بني يزيد (خلدون ي..، 1910، صفحة 195) في المنطقة الممتدة من تيطري جنوبا إلى مدينة الهدية شمالا (خلدون ع..، 2007، صفحة 43) - كما ذكرنا- وبعد سيطرة بني عبد الواد على المغرب الأوسط أساؤوا معاملتهم، وألزمهم الإتاوات والصدقات، لذلك رَحِبُوا بكلّ غازي للمغرب الأوسط (خلدون ع..، 2007، صفحة 130، 135)، وتعاونوا مع كلّ ثائر على بني عبد الواد (خلدون ي..، 1910، صفحة 195)، أمّا سويد وهم بطون أحد البطون الثلاثة لعرب بني مالك بن زغبة، فبعد سيطرة بني عبد الواد على تلمسان وضواحيها، اختصّوهم بحلفهم وولايتهم دون سائر بطون زغبة (خلدون ع..، 2007، صفحة 44، 45)، لكن العلاقة تدهورت بينهم، فطردوهم من التلال والأرياف، واستقروا بجوار بربر بني توجين في الصحراء، بسبب الفتنة بين يفمراسن، وعمر بن مهدي، ولد رئيسهم، قبل أن يسيطروا على أراضي شاسعة على حدود "مملكة تونس الغربية" (خلدون ع..، 2007، صفحة 46).

3- نتائج وانعكاسات إعادة التوزيع القبلي:

استطاعت السلطة السياسية - كما لاحظناه فيما سبق - إعادة توزيع القبائل في بلاد المغرب الأوسط، خاصّة بانتهاج سياسة التحالف مع القبائل واصطناعها، وإقطاعها الأراضي والجباية لها مقابل ووقوفها معها ضدّ أعدائها وضمّان ولائها، وهو ما نتج عنه تغيير لمجالاتها، ولنمط معيشتها وحياة أفرادها، كما أحدث ذلك أيضا تغييرا على صعيد البنية القبلية.

ويبين لنا المؤرخ عبد الرحمان بن خلدون (ت808هـ/1406م) مصير العرب الذين أدخلهم الموحدون إلى بلاد المغرب الإسلامي؛ بالقول "...ثم ضربت الأيام ضرباتها وأخلقت حدتهم، وفشلوا وذهبت ريحهم، ونسوا عهد البداوة والناجعة، وصاروا في عداد القبائل الفارمة للجباية والعسكرة مع السلطان" (خلدون ع.، 2007، صفحة 27)، وهو بذلك يُعطينا إحدى نتائج خلخلة البنية القبلية ببلاد المغرب، وهي الخضوع للقبائل المكتسحة، والاندماج معها؛ كالاختلاط الذي حدث بين عرب رياح وكتامة، وكان مثار دهشة وتساؤل للجغرافي الشريف الإدريسي (ق06هـ/12م)، الذي قال "...ولم يبق في كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب، إلا نحو أربعة آلاف رجل، وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا" (الإدريسي، 1863م، صفحة 100).

إنّ هذا الوضع أوصل الأستاذ الطيب بياض إلى الاستنتاج بأنّ ذلك الانصهار والتداخل والتمازج الذي تمّ عبر قرون، جعل التمييز بين القبائل العربية والبربرية على مستوى الموقف السياسي على الأقل يبدو مجرد وهم على حدّ تعبيره (بياض، 2013، صفحة 774)، وعلى الرغم من أنّ الأستاذ علاوة عمارة رأى في إحدى دراساته، بأنّ تشكّل خريطة اجتماعية جديدة ببلاد الزاب - بعد استقرار الجماعات الهلالية - لم تُلغ نهائيا الجماعات المحلية، إلاّ أنّه في المقابل أكد أنّ استقرار العنصر الهلالي بالزاب نقل المنطقة من خصوصيتها المتعدّدة الأجناس إلى وسط عربي ريفي، غلب عليه مفهوم القبيلة بمعناها التقليدي (عمارة، 2009، صفحة 23).

وتأثّر توزيع القبائل في بلاد المغرب الأوسط - زيادة على هذا - بالعامل الثاني؛ والمتمثّل في الهجرة، وهو ما أشار إليه ابن خلدون - نفسه - بقوله "...وكلّهم رعايا معبودون للمغارم إلا من اعتصم بقنّة الجبل..." (خلدون ع.، 2007، صفحة 148، 149)، وبتتبّعنا للمناطق الجبلية التي وردت في نزهة المشتاق، نجدها مساكن للبربر؛ فجبل الونشريس "يسكنه قبائل من البربر" (الإدريسي، 1863م، صفحة 85)، و"بين برشك وشرشال جبل تسكنه قبيلة من البربر" (الإدريسي، 1863م، صفحة 89، 101)، ومدينة الجزائر "...لها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر..." (الإدريسي، 1863م، صفحة 89)، و"يقرب سطيف جبل يُسمّى إيكجان وبه قبائل كتامة" (الإدريسي، 1863م، صفحة 95)، وكان ذلك دافعا لتسميتهم بـ"بربر الجبل" (الفهري، 2012، صفحة 143)، وهو نفس الوضع الذي واصل تأكيده الحسن الوزان (توفي بعد 957هـ/1550م) بعد ذلك، رغم أنّه كان يذكر المناطق الجبلية التي كانت تسكنها هذه القبائل، دون أن يذكر اسمها في الكثير من الأحيان (الوزان، 1983، صفحة 44، 46، 63، 101، 104).

ونجد أنّ مدينة ميللة التي كانت تعدّ من أمصار بلاد كتامة، وذكرها عبد الرحمان بن خلدون (ت808هـ/1406م) أنّها كانت من مجالات ثقل كتامة إلى جانب إيكجان وسطيف وباغاية وقسنطينة وجيجل والقل (خلدون ع.، 2007، صفحة 148)، فقد ظلّت كذلك إلى أن هجر منها سكّانها عندما خرّبها وهدّم سورها الأمير الزيري أبي الفتح المنصور الصنهاجي سنة 378هـ/988م؛ فعند تحرّكه بجيشه إلى بلاد كتامة، مرّ على ميللة "...وأمر بخرابها، وهدم سورها، وأمر أهلها بالمسير منها إلى باغاية... وكان المنصور في هذه الحركة لا يمر بمنزل ولا قصر ولا دار إلاّ أمر بهدمه" (المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2009، صفحة 243)، ففقدت أهمّيتها وعزف النّاس عن سكنها، تخوّفا من السلطة الحاكمة في تلك الفترة وهي الدولة الزيرية، وعندما أعيد ترميمها في القرن الخامس الهجري (11م) صار لها ربض واحد بعدما كان لها أرباض في عهد الدولة الأغلبية والفاطمية (مجانبي، 1998، صفحة 19)، وأصبح سكّانها «من أخلاط البربر جملة» (الإريسي، 1863م، صفحة 66)، ولم تعدّ سكنى لقبيلة كتامة فقط؛ فقد أكّد البكري أنّ مدينة ميللة في هذه الفترة «سكنها العرب والجدد المولّدون» (البكري، 1857، صفحة 64). وأدّت سياسة الدولة من جهتها دورا كبيرا في عملية خلخلة البنية القبلية، باتّباعها سياسة التهجير القسري للقبائل من مواطنها القديمة إلى مجالات جغرافية جديدة (الكوخي، 2014، صفحة 91، 92)؛ كالذي حدث لقبيلة سويد التي طردت من التلال إلى الصحراء بعد توتر علاقتها مع بني عبد الواد (خلدون ع.، 2007، صفحة 46)، أو بلجوء السلطة إلى مواجهة القبائل المتمرّدة بقبائل أخرى موالية لها، واعتباره إجراء لإخماد تلك التمردات (الكوخي، 2014، صفحة 92)؛ كما فعل الحفصيون باصطناعهم لقبائل كرفة، حتى يكونوا حربا على الزواودة ورياح، وأقطعوهم في سبيل ذلك جباية الجانب الشرقي من جبل الأوراس، وجزءا كبيرا من بلاد الزاب الشرقية (خلدون ع.، 2007، صفحة 22، 23).

ويلاحظ المتتبّع لحركة القبائل في بلاد المغرب، أنّ الأصول السلالية للمجموعات الأولى لم تستطع الصمود في بربريتها، أمام التغيّرات السكانية التي حصلت على مدى عدّة قرون؛ فقد أدّت التحالفات، وعمليات اختلاط النسب، بالتزاوج بين المجموعات، وتغيير مواضع السكن، وتبدّل أنماط الإنتاج، إلى حصول عمليات اندماج في النسيج الاجتماعي الذي كان يميّز كلّ مرحلة (بوطالب، 2002، صفحة 111)؛ وهو ما عبّر عن بعض أمثله عبد الرحمان بن خلدون (ت808هـ/1406م) عند حديثه عن قبائل المعقل، بالقول "...وعددهم كما قلنا قليل، وإنّما كثّروا بما اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم" (خلدون ع.، 2007، صفحة 59).

وتنقل لنا بعض النصوص النوازلية - من جهتها - إشارة حول مناطق استقرار وتوطن إحدى القبائل العربية في مجال المغرب الأوسط؛ فقد جاء فيها تأكيد مواطن قبيلة رياح بشرق المغرب الأوسط، وذلك في نازلة حكم الحج مع ما "...شاع من غلبة خوف الطريق من بلد رياح إلى أقصى إفريقية"، والتي سئلتها الفقيه أبو محمد عبد النور العمراني (الونشريسي، 1981، صفحة 441، 442) (كان حياً في بداية القرن 14هـ/14م) (التنبكتي، 1989، صفحة 286)، وهو ما أكده ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/1371م) - أثناء مسيره مع السلطان أبي الحسن المريني إلى تونس - من توطن تلك القبائل ما بين قسنطينة وإفريقية (الخطيب، 2007، صفحة 335).

ووردت نازلة أخرى وجهها الفقيه أبو العباس أحمد المعروف بالمريض (كان حياً عام 796هـ/1394م) (التنبكتي، 1989، صفحة 111) إلى الإمام أبي عبد الله بن عرفة (ت803هـ/1400م)، عن فتوى قتال المغيرين وقطاع الطرق من عرب المغرب الأوسط سنة 796هـ/1394م، ورغم ذكر النازلة لأسماء القبائل العربية التي كانت تقوم بالإغارة وقطع الطريق؛ وهي الديلم، وسعيد رياح، وسويد، وبني عامر (المازوني، 2009، صفحة 367، 371)، إلا أنّها لم تشر إلى مواطنهم تحديداً.

ونشير هنا إلى ذلك التغيير الذي يصاحب ذلك الاندماج في أنماط حياة ومعاش القبيلة؛ وفي هذا السياق أخذ الأستاذ صالح بعيزيق، قبيلة زواوة كنموذج للاندماج القبلي في مجتمع المدينة (بعيزيق، 2004، صفحة 115، 136)، وذكر أنّ اندماج قبيلة زواوة في مدينة بجاية خلال العهد الحفصي ساهمت فيه عدّة عوامل؛ كتهيء هذه القبيلة للاندماج، وإحاطتها المباشرة بالمدينة، وأنّ الاستقرار - كخاصية تشترك بها هذه القبيلة مع سكان المدن - كان عاملاً مساعداً على اندماجها، إضافة إلى ما ساهمت به القوى السياسية، والترابط الاقتصادي مع المدينة، والذي نتج عنه اندماج الوافدين من زواوة، وتأقلمهم مع الحياة الحضرية (بعيزيق، 2004، صفحة 116، 122).

4- الدور الريادي للقبائل الوافدة المندمجة:

زيادة على ما أحدثته السلطة السياسية من تغيير على البنية القبلية في بلاد المغرب الإسلامي، بسبب سياساتها المختلفة التي تناولناها، ونتج عنها في الكثير من الأحيان اندماج بين القبائل المحليّة والقبائل الوافدة في فترات سابقة، فإنّنا نجد تأثيراً آخر يتعلّق بمختلف الأدوار التي أنيطت بتلك القبائل، وهو ما كان عاملاً مساعداً لحدوث عمليات الاندماج، ودفعها من جهة أخرى للقيام بأعمال ريادية في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

أقدم بنو حفص نظير الدور الذي قدّمته لها القبائل العربية، على إقطاع قبائل كرفة جباية الجانب الشرقي من جبل الأوراس - حيث كانوا يقيمون - وجزءاً كبيراً من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلّاتهم الشتوية (خلدون ع.، 2007، صفحة 22، 23)، وقد كان ذلك خطوة أولى لتملّكهم تلك المناطق؛ فعندما "...اختل ربح الدولة وأخلقت جدّتها، واعتزت رياح عليها وملكوا المجالات على من يطعن فيها، نزل كرفة هؤلاء بجبل الأوراس حيث إقطاعاتهم ومكّنوه مللاً متفرّقة واتّخذوه وطناً ربّما يطعن بعضهم إلى تخوم الزاب..." (خلدون ع.، 2007، صفحة 22، 23).

وكُلّفت هذه القبائل - إلى جانب محاربتها القبائل المناوئة - بجمع الضرائب للسلطة المركزية، وجاءت الأخبار متواترة عن ذلك؛ فعندما تحالف الحفصيون مع قبائل كرفة من بطون الأثّيج - كما ذكرنا - أقطعوهم "...جباية الجانب الشرقي من جبل الأوراس، وكثيراً من بلاد الزاب الشرقية" (خلدون ع.، 2007، صفحة 22)، يتولون جبايتها وجمعها للسلطان (خلدون ع.، 2007، صفحة 24)، وكانت القبائل في كثير من الأحيان تشتط في هذا الجانب، بل وتبادر إلى فرض ضرائب لم تقرّها السلطة؛ على غرار قيام بني عامر على فرض ضريبة من الزرع على بني يزيد من زغبة، مقدارها "ألف غرارة من الزرع" (خلدون ع.، 2007، صفحة 24).

وأمدّتنا نوازل فقهاء هذه الفترة بكثير من الأمثلة عن الظلم والحييف الذي لحق أفراد المجتمع بسبب سلوكات شيخ القبيلة، أو عامل الوطن، أثناء جمع الضرائب، أو فرض غرامات جديدة عليهم؛ مثل "قيام سلطان ظالم وعامله، أو شيخ على قبيلة، بفرض فريضة على بلده، أو على بعض رعيته، من أهل قرية أو بادية..." (المازوني، 2009، صفحة 129)، وسؤال الفقيه بركات الباروني (كان حيّاً عام 760هـ/1359م) عن "رجل كلف عليه عامل وطنهم غرم مال ظلماً وعدواناً..." (المازوني، 2009، صفحة 361).

ومن جانب آخر فرضت طبيعة الاستقرار نمطاً اقتصادياً على تلك القبائل (الشاهري، 2000، صفحة 165)، فكانت تفرض ضرائب على التجار والمسافرين الذين يمرون بأراضيها (الهنّتاتي، 2009، صفحة 307)؛ ومن ذلك قيام أبناء عبّيد الله بن معقل بحماية قوافل المسافرين، بعد أن أقطعهم بنو عبد الواد مدينة وجدة وندرومة، و"ضربوا على بلد هنين بالساحل ضريبة يؤديها إليهم" (خلدون ع.، 2007، صفحة 61)، ومثلما وصفت كتب الفقه تلك القبائل باللصوص (الهنّتاتي، 2009، صفحة 307)، فإنّ النوازل التي تعرّضت لها، خرجت مخرج المتشكي من سلوكاتها، ووصفتها بالإغارة وقطع الطريق، فرغم أنّ قبيلة رياح كانت من القبائل التي حالفت بني عبد الواد في أغلب الفترات - وكان

السلطان "يباريهم بالأعطية والإنعام" (المازوني، 2009، صفحة 368)- فقد اشتكى الحجيج إلى ما يتعرّضون إليه من طرفهم، وكتبوا في أحد أسئلتهم ما تعرّض له قوافلهم من "المغيرين وقطاع الطرق...قطعوا الطرقات، وطلبوا على قطع رقاب المساكين، وأخذ أموالهم، وسبي حريمهم" (المازوني، 2009، صفحة 368)، وأكّده الحسن الوزان بالقول أنّ هؤلاء: "...كثيرا ما يتربّصون في الكمائن، حتى إذا مرّ بهم مسافر خرجوا وجرّدوه من المال والثياب، ثمّ فتكوا به، فأصبحت الطرق غير آمنة البتة..." (الوزان، 1983، صفحة 48)، وهو ما أخرج هذه القبائل إلى مستقلة، عندما "ضعفت الدولة عن مقاومتهم فضلا عن ردهم" (المازوني، 2009، صفحة 368).

وأفرزت هذه العلاقة بين القبيلة والسلطة من جهة أخرى تراتبية اجتماعية؛ فقد سمحت الحروب لشيخ القبيلة وحاشيته من المقاتلين باقتطاع جزء هام من الغنيمة، فلم يعد هؤلاء يتردّدون -كلما سنحت لهم الفرصة- في مضاعفة العمليات العسكرية، التي تسمح لهم بتكديس الثروات، ما تجلّى في مستواهم المعيشي، وجعلهم فوق أعضاء القبيلة (الهاللي، 2006، صفحة 75، 77)، ومن جهة أخرى كان الإقطاع الذي تستفيد منه القبائل، غالبا ما يستأثر به أعيانها، أو شيوخها؛ وهو ما عبّرت عنه إحدى النوازل بقولها عن "...رجل من أعيان القبائل يعطيه السلطان أرضا ينتفع بها بحياته..." (المازوني، 2009، صفحة 130)، أو بقيام السلطان إقطاع أرض لرجل من شيوخ العرب تمليكا مطلقا عاما، رغم أنّ هذه الأرض كانت "معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا، ينتفعون بها بالحراثة، ويؤدّون خراجها للإمام الخليفة..." (المازوني، 2009، صفحة 21، 23)، وتحقّقت لهم بذلك ملكية أكبر نمت باضطراد مع مرور الزمن (يوسف، 1992، صفحة 254)، ودفع هذا السلوك من هؤلاء إلى وصفهم من طرف أفراد المجتمع -من خلال ما نقلته نوازل هذه الفترة- بـ"جباة الوطن" (المازوني، 2009، صفحة 124، 259، 260)، وتأثرت علاقتهم بهم كثيرا، ونشير إلى أنّ هذه التراتبية أصبحت هي الأكثر تحديدا للواقع الاجتماعي، مقابل تلاشي وتهميش الانتماءات العنصرية والطائفية وحتى الدينية (الطاهري، 1991، صفحة 69)، وهي إحدى مظاهر ذلك الاندماج الذي رأيناه سابقا.

04- الخاتمة:

تبين لنا من خلال ما سبق ذلك التغيير في التوزيع القبلي بالمغرب الأوسط؛ والذي حدث بسبب الاكتساح، ما دفع القبائل إمّا إلى الخضوع للقبائل المكتسحة، ومن ثمّ الاندماج فيها، أو إلى الهجرة نحو مناطق أخرى، كما لاحظنا تواصل استعمال السلطة السياسية للقبائل المتوزّعة عبر بلاد المغرب الأوسط، بالتحالف معها والعمل على كسر

التحالفات القائمة، وذلك في سبيل سعيها لبسط سيطرتها، وإحكام إدارتها لمجالاتها، وهو الأمر الذي كان له تأثير أيضا على توزيع القبائل، وكان عاملا مساهما بدوره في حركة الاندماج القبلي بين القبائل المحليّة والقبائل الوافدة إلى بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري (11م)، فأدّى إلى تغيير بنية الكثير من القبائل ونمط معيشتها وعادات أفرادها ولسانهم.

وتأكد لنا من جهة أخرى ما صاحب عملية الاندماج من التغيير الذي طرأ على حياة القبيلة بالمغرب الأوسط؛ بسبب ما اضطلعت به من مهام من طرف السلطة السياسية كجباية الضرائب، أو ما أقطع لها من أراضي حولها من التثقل إلى الاستقرار، وتجلي لنا في هذا السياق دور العنصر الوافد في هذا، ومن ذلك تأثير العنصر الهلالي بمنطقة الزاب، أو ما اعتبر تكيفا للقبيلة مع البيئة الجديدة التي استوطنتها، على غرار التغيير الذي طرأ على قبيلة زاوارة في مدينة بجاية وما لاحظناه من تداخل أسباب حدوثه بين التأثير السياسي والطموحات الدافعة لذلك من طرف أفراد القبيلة أنفسهم.

قائمة المراجع:

- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد. (1286هـ). *المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس*. تونس: مطبعة الدولة التونسية.
- ابن مرزوق محمد الخطيب. (2007). *المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن*. (ماريا خيسوس بيغيرا، و محمود بوعباد، المحررون) الجزائر: وزارة الثقافة.
- ابن عذاري المراكشي. (2009). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. (ج.س. كولان، و ليفي بروفنسال، المحررون) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني. (1968). *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*. (محمد الشاذلي النيفر، و عبد المجيد التركي، المحررون) تونس: الدار التونسية النشر.
- ابن خلدون يحي. (1910). *بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (المجلد 1)*. الجزائر: مطبعة فونطانة.
- ابن خلدون عبد الرحمان. (2007). *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (الإصدار 1، المجلد 6، 7)*. (عبادة كحيلة، المحرر) القاهرة، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- البكري أبو عبيد عبد الله. (1857). *المُغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)*. الجزائر: مطبعة الحاكم العام.

الاندماج القبلي بمجال المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط، بين الطموحات القبلية، وأهداف السلطة السياسية

- الزوان الحسن. (1983). *وصف إفريقيا* (الإصدار 02، المجلد 2). (محمد حجي، و محمد الأخضر، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- الونشريسي أبو العباس أحمد. (1981). *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب* (المجلد 1). (محمد حجي، المحرر) الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- الهنتاتي نجم الدين. (2009). *جوانب قانونية حول القبائل بالمغرب الوسيط من خلال كتب الفقه المالكية*. (جمعية المؤرخين المغاربة، المحرر) *مجلة التاريخ العربي* (48).
- الهلالي ياسر. (2006). *التراتب الاجتماعي في البادية المغربية أواخر العصر الوسيط*. تأليف الأسرة البدوية في تاريخ المغرب. منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية.
- الطاهري أحمد. (1991). *طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط (إمكانية البحث من خلال نموذج الأندلس)*. تأليف جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط (المجلد سلسلة الندوات 02). مكناس: مطبعة فضالة.
- يعقوبي أحمد. (2002). *البلدان* (الإصدار 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- الكوخي محمد. (2014). *سؤال الهوية في شمال إفريقيا*. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- المازوني أبو زكرياء يحيى. (2009). *الدرر المكنونة في نوازل مازونة* (المجلد 3، 4). (مختار حساني، و مالك كرشوش الزواوي، المحررون) الجزائر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- الفهري عبد الحميد. (2012). *البربر الجبالية في المغرب في العصور الوسطى. التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور*. قسنطينة: مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري.
- التنبكتي أحمد بابا. (1989). *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*. (عبد الحميد الهزامة، المحرر) طرابلس، ليبيا: منشورات كلية الدعوة الإسلامية.
- الشاهري مزاحم علاوي. (2000). *قبائل هلال وحشم والمعقل في المغربين الأوسط والأقصى الاستقرار- الدور الاقتصادي والثقافي في 584-800هـ*. تأليف المجتبع العلمي، ندوة الوطن العربي، النواة-الامتداد عبر التاريخ. بغداد.
- الشريف الإدريسي محمد بن محمد. (1863م). *المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق)*. ليدن: مطبعة بريل.

- بوطالب محمّد نجيب. (2002). *سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي* (المجلد 41). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- بوعبدلي المهدي. (1980). *لقطات من تاريخ مملكة الونشريس الثقافي والسياسي والحضاري في عهد دولة بني توجين*. وزارة الشؤون الدينية، الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي. الجزائر: وزارة الشؤون الدينية.
- بياض الطيب. (2013). *بنية القبيلة بمغرب ما قبل الاستعمار والمحافظة على التوازنات*. الجمعية التونسية المتوسطية للدراسات التاريخية والاقتصادية، *دراسات وبحوث حول إفريقيا والمجال العربي-المتوسطي* (المجلد 2). تونس.
- بعيزيق صالح. (2004). *الاندماج القبلي في مجتمع المدينة، مثال قبيلة زاوّة ومدينة بجاية في العهد الحفصي. القبيلة في العالم العربي الإسلامي، الوضع الحالي للدراسات والآفاق الجديدة*. 128. تونس: المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية.
- بن زاوي طارق. (2019). *خدمات زيري بن مناد الصنهاجي ودورها في الدفاع عن الدولة الفاطمية العبيدية في بلاد المغرب (324-360هـ/935-971)*. مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، 09(01).
- جدلة ابراهيم. (2004). *قبائل رياح من النيل إلى الأطلس*. المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية (المحرر)، *القبيلة في العالم العربي الإسلامي، الوضع الحالي للدراسات والآفاق الجديدة* (المجلد 128). تونس: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، (103، 114).
- جودة يوسف عبد الكريم. (1992). *الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (10، 09م)*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- حسن محمّد. (1999). *المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي* (المجلد 22). تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس.
- حسن محمّد. (2022). *الجزور التاريخية لبلاد المغرب جدلية السلطة والمجتمع والمجال*. تونس: مجمّع الأطرش.
- لقبال موسى. (1979). *دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- مجاني بوبة. (1998). *مدينة ميلة في العصور الوسطى-دراسة اجتماعية واقتصادية*. (المتحف الوطني للآثار، مجلة حوليات 07).

الاندماج القبلي بمجال المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط، بين الطموحات القبلية، وأهداف السلطة السياسية

- شوقي مصطفى أبو ضيف. (1982م). *القبائل العربية في المغرب في عصري الموحددين بني مرين*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

-- عمارة علاوة. (2009). *الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب*. (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، المحرر) *مجلة الآداب والعلوم الإنسانية* (10).